ميزان الشعر الإسلامي

عندما يلقي الشاعر شعره، أو يكتب قصيده فإنه لا يلقيه في فراغ، وانما في مجتمع يرمقه ويستمع إليه. فإذا كان الشاعر المسلم صادقا في عاطفته، عميقا في معانيه، محكما لمبانيه فإن المجتمع المسلم - ممن يتذوق الشعر - ينصت إليه، ويطرب له، ويهتز إعجابا بين يديه. ذلك أن معنى الصدق في الأدب - كما بينه د. محمد النويهي - هو: «أن يصدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي أحس بها فعلا، وإعلان عقيدته التي يعتقدها»[1].

د . ناصر الخنين

وإذا علم علم اليقين أن هذا الكون بجميع ما فيه ومن فيه مسلم لله تعالى، يسجد له ويسبحه تسبيح تعظيم وتنزيه، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء)، فهذه هي سجية هذا الكون، وتلك هي فطرته. فإذا صور الشاعر هذا المعنى وكشف عنه، من خلال إيقاعاته الشعرية الأخاذة، ولمساته الفنية المؤثرة - فإن هذا التصوير الصادق البديع يترك أثرا بالغا في النفوس المسلمة التي تؤمن بذلك وتعتقده، بل يمتد هذا الأثر إلى طوائف أخرى من البشر، ممن سلمت فطرهم، واستقام نظام تفكيرهم، وما ذاك إلا لأنه قد تضافر في ذلكم التصوير انطباق الجمال الفني على الصدق الواقعي.

وهذه السريرة هي ذروة سنام التأثير الفني الذي يحمله النص الأدبي ويوقعه في ذهن المتلقي، مما يجعله في النفس مقبولا، وفي منطق العقل معقولا، فيطمئن له القلب، وينشرح له الصدر، لكون منطلقه إيمانيا، وتصويره للأحياء واقعياً، فهذا جانب إبداعي لا يصل إليه ولا يتمكن منه إلا الأديب المسلم، شاعرا كان أو ناثرا.

والجانب الإبداعي الآخر هو ما يتعلق برسالة الأديب المسلم على وجه العموم، والشاعر على وجه الخصوص، ذلك لأن رسالته ربانية إنسانية، وليست حيوانية أو شهوانية، يقول الدكتور: محمد النويهي:«رسالة الفن العظمى هي نقل التجارب الإنسانية في تمام عمقها وسعتها وقوتها، وهو بهذا ذو تأثير جسيم في مجتمعنا الإنساني الذي هو جماع هذه التجارب وميدان تفاعلها، فإذا مثل الفن هذه التجارب تمثيلا مشوها أو شاذا فإنه يضرنا أبلغ ضرر، لأنه يعوقنا عن الفهم الصحيح والتقدير الصائب لتجاربنا الحيوية، وهذا أعظم رزء يمكن أن نمنى به»[٢].

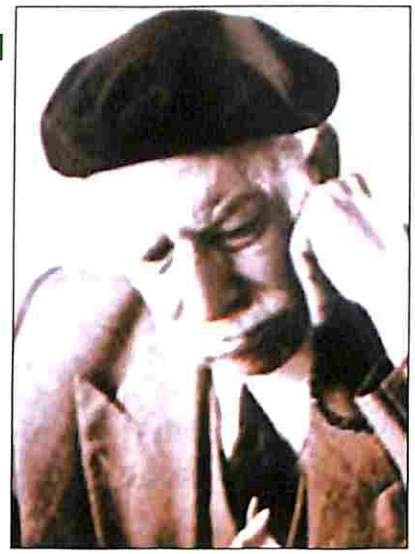

توفيق الحكيم

■ إذا أمعنا النظر في طبيعة الشعر الإسلامي، ثم أمعنا الفكر في مضامينه وجدناها حافلة بقيم إنسانية رفيعة، تتعلق بجنس الإنسان ذاته.

ويقول (جويو) أحد النقاد الغربيين المعاصرين عن سمة الفن الرفيع:«إن الروح الأخلاقية عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معا وفي وقت واحد من أعماق طبيعته، وإن الفن غير الأخلاقي هو على كل حال أحط مرتبة من الفن الأخلاقي، وذلك من الوجهة الفنية الخالصة. فالفن العالي ليس ذلك الذي يثير في النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب، وإنما هو ذلك الذي يثير منها أكرم المشاعر وأنبلها»[٣].

أما توفيق الحكيم فيرى أن الميزان الدقيق لرفعة الأدب ولضعته متوقف على نوع التأثير الذي يتركه الفن الأدبي، ثم يفصل ذلك قائلا: «إن نوع التأثير هو الذي يحدد الفن، فإذا طالعت أثرا فنيا – قصيدة أو قصة أو صورة – وشعرت بعدئذ أنها حركت مشاعرك العليا، أو تفكيرك السامي فأنت أمام فن رفيع، وإذا لم تحرك إلا المبتذل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فأنت أمام فن رخيص»[٤].

فرسالة الشاعر لا تكون إنسانية مؤثرة إلا إذا تضمن فنه الشعري قيما سامية، ومثلا رفيعة فإذا اشتمل الفن الشعري على ذلك وتوشح به بدأ هذا الفن يلمع بإشعاعه العالمي المؤثر، وارتقى في سلم الإنسانية درجات، ومن ثم فقد أخذ طريقه نحو الإبداع المتألق.

وإذا أمعنا النظر في طبيعة الشعر الإسلامي، ثم أمعنا الفكر في مضامينه وجدناها حافلة بقيم إنسانية رفيعة، تتعلق بجنس الإنسان ذاته، لا بجهته أو موطنه أو جنسيته، لأن مصدر تلك القيم دين رباني المصدر، آفاقي الأبعاد، إنساني الخطاب، ممتد في الزمان إلى أن يأذن الله بزوال الدنيا ومن عليها، ذلكم هو الإسلام الذي ارتضاه الله للناس دينا كما في قوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... ﴿١٩﴾ (آل عمران) فنسخ سائر الفكر والأديان بصريح قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ (آل عمران).

وبناء على ما تقدم فإن الشاعر المسلم يمتلك عناصر الإبداع والتأثير أكثر من غيره من شعراء الأرض، فدينه أصح الأديان وأرضاها عند الله تعالى، وقيمه أعلى القيم وأوفاها، وجمهوره يفوق ثلث المعمورة

عددا، كلهم أو جلهم يتلقطون أشعاره، ويتابعون أخباره، فيشيدون به ويدعون له: وعلى هذا فلا يصح أن يبز الشاعرَ المسلمَ شاعرٌ فاسقٌ في إبداع الصورة الشعرية وإتقانها وتعميق معانيها وحبك مبانيها، وذلك لأن الإسلام يعلو على غيره ويعلي معه صاحبه إلى أفق أرحب وأوسع، فينبغي أن يكون شعر المسلم بديعا فائقا سائر الأشعار في جمال الصورة وعمق التأثير، وفي هذا من إظهار الدين وإعلاء شأنه ما فيه.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الشاعر المسلم أعمق فقها لغاية وجوده، وأبعد إدراكا لهدف الحياة، كما أنه أعرف من سواه بسنن الكون ومكوناته، فالصورة عنده بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يعلوها غبار الكفر، ولا يشوبها كدر الإلحاد، فحسه أرهف، وعينه أبصر، وأذنه أسمع، فدواعي الإبداع متوافرة لديه، وأسباب الابتكار ظاهرة بين عينيه، فتوجب عليه أن يتألق مشعا في جزئية من جزئيات عمله الشعري.

وبعد هذا التنظير العابر لطبيعة الشعر الإسلامي، ولأبعاد موازينه الموضوعية التي يمكن أن يوزن بها، ويحتكم إليها، ويصدر عنها، والتي بها يقاس تأثيره الإيجابي، ويدرك موقعه الإنساني، ووقعه الإسلامي في النفس البشرية بعامة وفي نفوس المسلمين بخاصة – نورد نماذج متنوعة لأشعار إسلامية طرقت آفاقا ثرية، وعالجت قيما إسلامية إنسانية رفيعة، لندرك بعضا من أبعاد موضوعاتها، ونلمح آفاق مجالاتها في التراث الإسلامي الذي حفل بها على امتداد تاريخه الطويل منذ البعثة النبوية إلى عصرنا الحديث.

◁◁ الشعر الإسلامي والجهاد:

وأول ما نقف عليه ويشد اهتمامنا إليه هو توظيف الشعر في ساحات الجهاد، ومنازلة الأعداء بمعانيه، ومصاولتهم بقوة مبانيه، وهو معنى إسلامي جهادي

فقهه الشعراء المسلمون، وعلى رأسهم سيدهم حسان ابن ثابت – رضي الله عنه – شاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم –، الذي استجاب لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من قوله: (اهجوا قريشا). وعلل لهذا الأمر بعلة معنوية ذات دلالة جهادية تفوق في تأثيرها سلاح ذلك العصر (النبال)، فقد قال معللا هجو قريش بالشعر: «فإنه أشد عليها من رشق النبل»[٥].

وقد انبرى حسان رضي الله عنه لهذه المهمة الجهادية، وانفعل مقوله بها، متوعدا قريشا، ومبشرا بفتح مكة سلما أو جلادا، قائلا:

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كداء
يبارين الأسنة مصعدات
على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم
يعز الله فيه من يشاء

ثم يلتفت في عزة وأنفة إلى أبي سفيان بن الحارث – آنذاك – ساخرا من فعله، مفتخرا بهجوه، فيقول:

هجوت محمدا، فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء؟
فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا
أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم
ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء [٦]

الشعر الإسلامي والقيم الخلقية:

وإذا انتقلنا إلى ميدان الأخلاق العالية والقيم الإنسانية البانية نجد أن للشعر سهما ضاربا في هذا المقام، تغوص أعماقه في نفوس الفطر الإنسانية بله النفوس المسلمة، تأمل أبيات معن بن أوس المزني (٦٤هـ) وهو يفتخر ببعده عن مواطن الريب واجتنابه الفواحش والمنكرات، وتلبسه بمعالي المكرمات، إذ يقول:

لعمرك ما أهويت كفي لريبة
ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها
ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة
من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي
ولست بماش – ما حييت – بمنكر
من الأمر ما يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثرا نفسي على ذي قرابتي
وأوثر ضيفي – ما أقام – على أهلي [٧]

وهذه المعاني الإسلامية العالية، هي من لباس المتقين، وهذا يذكرنا بقول الحسن البصري – رحمه الله –: " ما ضربت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي، حتى أنظر، أعلى طاعة أو على معصية؟، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت" [٨].

وإذاعة مثل هذه الأخلاق وتمجيد التخلق بها يعين على فعلها والتزام هديها، والشعراء الإسلاميون بمثل هذا يسهمون في حفز النفوس نحوها، وبعثها إليها، كما أنه يطرب كل مسلم ويعجبه مثل هذا السمت الإنساني الراقي، وذلك التصوير الفني العالي.

ومن معايير استحسان الشعر الإسلامي ومن مواضع التأثر به والإقبال عليه ما يعبر عنه الشاعر من اعتزازه بالفضائل، وترفعه عن الدنايا والسفاسف، وبخاصة إذا كان من علية القوم فضلا وأدبا وعلما، وهذا ما أبرزه القاضي الناقد علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢هـ) في ميميته المشهورة، التي قال فيها:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما
بدا طمع صيرته لي سلما
إذا قيل هذا منهل قلت: قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنزهها عن بعض ما لا يشينها
مخافة أقوال العدا فيم؟ أو لما[٩]

الشعر الإسلامي والحكمة:

والشعر ينطق بالحكمة، والحكمة فيه مرغوبة مطلوبة، وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على الشعر الناطق بها، ينتفع به العاقل، وينتصح به الجاهل، وغالبا ما تكون الحكم عامرة بالمواعظ حافلة بالعبر والأمثال، فتكون حقلا تربويا خصبا يزكي النفوس، ويحدوها نحو الفضائل حدوا، فهذا صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ) في لاميته الرائعة يقول:

الجد في الجد والحرمان في الكسل
فانصب تصب عن قريب غاية الأمل
واصبر على كل ما يأتي الزمان به
صبر الحسام بكف الدارع البطل
وجانب الحرص والأطماع تحظ بما
ترجو من العز والتأييد في عجل
ولا تكونن على ما فات ذا حزن
ولا تظل بما أوتيت ذا جذل
واستشعر الحلم في كل الأمور ولا
تسرع بمبادرة يوما إلى رجل[١٠]

الشعر الإسلامي والموعظة:

ويقترب من الحكمة ويتفرع عنها الوعظ والتذكير والمناصحة، بتوجيه الخطاب إلى كل من يتأتى له الخطاب، فيحرك الشاعر المشاعر، ويوقظ القلوب، ويطرق أبواب الغافلين، من مثل ما فعل أبو الواعظين.. أبو العتاهية، فقد قال:

مالي رأيتك راكبا لهواكا
أظننت أن الله ليس يراكا
انظر لنفسك فالمنية حيث ما
وجهت واقفة هناك حذاكا
خذ من حراكك للسكون بخطة
من قبل أن لا تستطيع حراكا
للموت داع مزعج وكأنه
قد قام بين يديك ثم دعاكا
وليوم فقرك عدة ضيعتها
والمرء أفقر ما يكون هناكا[١١]

الشعر الإسلامي والاعتبار:

وقد يكون التأمل في الماضي المشين، فالسيرة الغابرة فرصة للتفكير والمراجعة ولتقريع النفس وتأنيبها على ماضيها المر،وبخاصة إذا كان الشاعر ممن له أثر في المجتمع أو كانت ظروف الحياة متوافرة لديه، كحال المعتضد (٢٨٩هـ) أحد خلفاء بني العباس، الذي تربع على كرسي الخلافة، فصال وجال، فلما حضرته المنية تذكر أفعاله، فجعل يلوم نفسه ويقرعها، وفي ذلك تربية لغيره، ورسالة لمن كان له قلب أو ألقى السمع هو شهيد، استمع إليه إذ يقول:

ولا تأمنن الدهر إني أمنته
فلم يبق لي حالا ولم يرع لي حقا

قتلت صناديد الرجال فلم أدع
عدوا ولم أترك على ظهرها خلقا
وأفنيت دار الملك من كل بارع
فشتتهم غربا وشردتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة
وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهما فأخمد جمرتي
فها أنذا في حفرتي ميتا ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد
لدى قابض الأرواح في فعله رفقا
وأفسدت دنياي وديني سفاهة
فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى
فيا ليت شعري بعد موتي ما أرى
لرحمة ربي أم إلى ناره ألقى[١٢]

الشعر الإسلامي والطبيعة:

وإذا التفتنا إلى الطبيعة الغناء وجدناها حقلا بديعا أغرى ويغري الشعراء ذوي الإحساس المرهف، فيرسمون بأشعارهم لوحات بديعية، ينبهون العقول على مبدعها وباعث نضرتها، في صور مبهجة، ومناظر مهيجة، فقد قال الثعالبي (٤٢٩هـ):

الغيم بين مُمسَّك ومُعَصْفر
والماء بين مُصَنْدل ومُعَنْبر
والروض بين مُدَمْلج ومُتوج
والورد بين مُدرْهم ومُدَنَّر
والأرض قد برزت لنا في أخضر
في أصفر في أبيض في أحمر
لتروقنا ببدائع وطرائف
من حسن منظرها وطيب المخبر
سبحان محيي الأرض بعد مماتها
وكذاك يحيي الخلق يوم المحشر

الطبيعة الغناء حقل بديع يغري الشعراء ذوي الإحساس المرهف، فيرسمون بأشعارهم لوحات بديعة، ينبهون العقول على مبدعها في صور مبهجة.

الشعر الإسلامي والرثاء:

وللموت هيبة، وله على نفس الشاعر هزة، وخاصة إذا اختطف حبيبا، أو اخترم ولدا قريبا، فإن الألم يعتصر القلب، فتدمع العين، ويضيق الخاطر، ولا يقول الشاعر المؤمن إلا ما يرضي الرب، هذا ومثله وجدناه لدى أبي الحسن التهامي (٤١٦هـ) حين مات ابنه صغيرا، فرثاه بمرثية حزينة، وشحنها بمعان إيمانية وحكم إنسانية، فقد قال:

حكم المنية في البرية جاري
ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبرا
حتى يرى خبرا من الأخبار
فالعيش نوم والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال ساري
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت
منقادة بأزمة المقدار
ليس الزمان - وإن حرصت - مسالما
خُلُقُ الزمان عداوةُ الأحرار[١٢]

وبعد فإن مجالات الشعر الإسلامي التي لها أبعادها المؤثرة في النفس المسلمة بخاصة، وفي النفس الإنسانية بعامة - كثيرة متعددة، ولم يكن غرض هذا المقال حصرها أو التدقيق في عددها، وإنما حسبه أن يشير إلى بعضها، وأن يدل بها على غيرها، لأن الكون المنظور، وسائر مجالات الحياة هي صفحات فنية، ينبغي على الأدباء المسلمين - والشاعر أحد هؤلاء - أن يحسنوا قراءتها، وأن يقلبوا صفحاتها، وأن يقدموا لأمة الاستجابة ما يهز ويؤثر، ولأمة الدعوة ما يقنع ويبهر، وهم في ذلك محتسبون ومحسنون، ولربهم راغبون ومنقلبون ■

الهوامش:

(١) محاضرات في عنصر الصدق في الأدب، ص٣٨، د. محمد النويهي، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العالمية، ١٩٥٩م.
(٢) طبيعة الفن ومسؤولية الفنان، ص٧٣، د. محمد النويهي، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
(٣) فن الأدب، ص٧٥، توفيق الحكيم، مكتبة الآداب، مصر.
(٤) المصدر السابق، ص٧٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
(٦) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.
(٧) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٨٥-٣٨٦، جمع وتحقيق عبدالعزيز الزير ومحمد الأطرم، موسوعة أدب الدعوة الإسلامية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
(٨) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٦٦، دار الفكر، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
(٩) شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي، ٩٩-١٠١، موسوعة أدب الدعوة الإسلامية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
(١٠) من عيون الشعر، اللاميات، ١٢٨-١٣٢، جمع د. محمد إبراهيم نصر، مطابع الإشعاع.
(١١) أبو العتاهية.. أشعاره وأخباره، ٢٦٣-٢٦٤، تحقيق د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
(١٢) شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثاني ٢٠٦-٢٠٧، جمع وتحقيق د. عائض بنية الردادي، موسوعة أدب الدعوة الإسلامية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
(١٣) ديوان أبي الحسن التهامي، ٣٠٨-٣١٢.

كلمات..

فوزية العمري
السعودية

لا تعجب إذا راودتك الهواجس وهاجمك القلق ! كلاهما يقول: إنك مستبعد من دائرة الود، لأنك ذات عتو وطأت رقيق مشاعرهم، ونسفت براعم إحساسهم.

في لحظات الألم يتشبع القلم حينا بمساحات خصبة من البوح، وحينا لا تتوارد إليه إلا عبارات مهترئة لا تكاد تصل إلى أدنى درجة من حرارة الآهة التي تكويك.